



حجاجية الخطاب في كتابات الأستاذ أحمد صافي المستغنامي

- "في رحاب شنقيط" نموذجاً-

The argumentative of discourse in the writings of Professor Ahmed Safi El-Mosteghanemi

- "In Rehab Chinguetti" as model -

أ.د. جميلة روقاب¹: كلية الآداب والفنون- جامعة الشلف.

أ.د محمد حاج هي²: كلية الآداب والفنون- جامعة الشلف،

تاريخ الإرسال: 2023/04/13 تاريخ القبول: 2023/05/17 تاريخ النشر: 01 جوان 2023

Abstract:

This article seeks to talk about the efforts of the Algerian linguist Ahmed Safi Al-Mostaghanemi in writing and creativity, by analyzing his linguistic methods, showing his rhetoric, and revealing the mechanisms of pilgrims scattered in his article "In Rehab Chinguetti"; Intending to stand on the human side of his personality on the one hand, and to show the aspects of scientific integration he has between the disciplines of literature, social and psychological linguistics, ancient rhetoric, pilgrims, technology and other interrelated sciences.

Keywords: rhetoric, argumentative links, Arabic language, Safi Mosteghanemi, Chinguetti.

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى الحديث عن جهود العالم اللغوي الجزائري أحمد صافي المستغنامي في الكتابة والإبداع، من خلال تحليل أساليبه اللغوية، وبيان بلاغة الخطاب لديه، وكشف آليات الحجاج المنثورة في مقالته "في رحاب شنقيط"؛ قصد الوقوف على الجانب الإنساني في شخصيته من جهة، وبيان جوانب التكامل العلمي لديه بين تخصصات الأدب واللسانيات الاجتماعية والنفسية والبلاغة القديمة والحجاج والتقانة وغيرها من العلوم المتداخلة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الروابط الحجاجية؛ اللغة العربية؛ صافي المستغنامي؛ شنقيط

¹ rougabdj@gmail.com

² mohamedhadjhenni@gmail.com

مقدمة:

أنجبت أرض الجزائر العزيزة- على مر العصور- عددا كبيرا من العلماء واللغويين والأدباء والشعراء الذين نبغوا في العلوم الإسلامية، وبرعوا في علوم اللغة العربية وآدابها، وتغلغلوا في أصولها، واطلعوا على دقائقها ونكاتها، وامتازوا بتذوقهم الخاص لأسرار هذه اللغة وأساليبها، وصاغوا انطباعاتهم وأفكارهم الحسيفة في صورتهم المنظومة والمنثورة، ومن بين هؤلاء الأدباء واللغويين الجزائريين العلامة أحمد صافي المستغاني الذي يدور حوله هذه المقالة المتواضعة. إنه فيض فصاحة دافق، ونبع لغة رائق، وهبه الله تعالى مهارات عالية في التأليف والخطابة، فقدم مساهمات جليلة في تفسير معاني سور القرآن الكريم، وكشف أسراراً بيانية لمفرداته وأساليبه، وأبان باقتدار عن بلاغة الخطاب القرآني، وغيره من الخطابات وفي أغراض أخرى كثيرة.

لقد بذل اللغوي والمجمعي والمفسر الجزائري فضيلة البروفيسور أحمد صافي المستغاني جهوداً جبارة في مجالات اللغة والبلاغة والتفسير، واجتهد اجتهداً كبيراً في وضع مصنفات متعددة في هذه المعارف والعلوم، وقام بإذاعة حصص تلفزيونية، وتنظيم ندوات فكرية، وإدارة جلسات تكوينية لإنجاز المعجم الحلم؛ المعجم التاريخي للغة العربية، برعاية مجمع الشارقة، وإسهام المجمع اللغوية العربية، وكل هذه الجهود الحثيثة، والمسامي النبيلة خدمة للغة القرآن الكريم، وتخليداً لمعجمها التاريخي، الذي بدأت ثماره تؤتي أكلها، وتؤهل العربية لتتقدم في سلم اللغات الحية، ولعل هذه الورقة المتواضعة في هذه المناسبة السعيدة شهادة حية لتكريم هذا المفكر اللغوي، والمفسر الأملعي، واعتراف بفضل هذه شخصيته العلمية العربية والإنسانية من خلال ما قدمه للساحة الفكرية الجزائرية من آثار لغوية متخصصة، فأصبحنا اليوم- وبفضل ما خطته أنامل الرجل وما أغدقت أفكاره- ندبج كتاباتنا بأرائه المقالات العلمي، والرسائل الجامعية الأكاديمية، والكتب الفكرية، المبينة لهذا الجانب المعرفي؛ عرضاً وتحليلاً واستلهاماً، شأنه في ذلك شأن المفكرين الجزائريين ممن حُقّ لنا أن نفتخر بهم ونفاخر في كل حين، حيث تتعرض هذه الورقة البحثية إلى تحليل الأساليب اللغوية البلاغية والأدوات والروابط الحجاجية الموظفة في الخطابات المتداولة ضمن مقال "في رحاب شنقيط"؛ أين يبرز فيها الجانب المعرفي والتواضع الإنساني للعلامة الجزائري الأستاذ أحمد صافي المستغاني، ودفاعه عن مشروعه الطموح بحججه الماتعة بأساليبها المقنعة مستندياً في ذلك إلى أدوات وإجراءات التداولية كمقاربة نصية والوقوف على الأبعاد النفسية لبيان صلة الرحم العلمية بين فكر العالم الجزائري وعلم النفس الاجتماعي والبلاغة الجديدة (الحجاج) من خلال تحليلنا لمقامته الشنقيطية التي نعرضها تكريماً لهذا العالم الجزائري حفظه الله تعالى ورعا.

ركزت الأبحاث البلاغية القديمة على الفروع الثلاثة المعاني والبيان والبديع، ولما جاءت البلاغة الجديدة انفتحت على الحقول المعرفية الأخرى فانبتت عنها نظريات لغوية لا تقل شأواً عن نظرية النظم أو نظرية قوانين الخطاب، وكان الحجاج هو القاسم المشترك بين البلاغة العربية القديمة والبلاغة الجديدة.

وتسعى هذه الورقة البحثية إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية:

فيم تتجلى جهود الأستاذ الفذ أحمد صافي المستغامي في إثراء اللغة العربية من خلال مقاله "في رحاب شنقيط؟ ويتشقق عنها عدد من الأسئلة الفرعية، منها:

- ما طبيعة الأساليب البلاغية والروابط الحجاجية المستعملة في هذا خطابه اللغوي؟

- فيم تكمن وسائل الإقناع ومتطلبات الخطاب الحجاجي التأثيري؟

- ما هو البعد التداولي الذي نستشفه عبر خطابه من خلال رحلته لأرض شنقيط؟

1- الحجاج عتبات اصطلاحية:

تعددت تعاريف الحجاج (Argumentation) من حقل معرفي لآخر، وحسب العلوم التي يوظف داخلها، أساساً أو عرضاً، فهو يمثل تلك المراحل أو الخطوات التي يحاول بها الواحد أو الجماعة أن تقود المستمع إلى تبني موقف معين، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردة أو حسية ملموسة، أو على قضايا جازمة تهدف في الأساس إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعيتها (الحباشة ف.، 2007، الصفحات 82-83)، وبالتالي يمارسها مع الآخرين دفاعاً عن أفكاره ومعتقداته، عارضاً أو مفتداً، محاوراً أو مقنعا (الغامدي، 1432هـ- 2011م، صفحة 13)، والحجاج بوصفه نمطا من أنماط الخطاب، يمكن تسميته بالخطاب الإقناعي الذي يعرفه بوتون فيليب بأنه "نشاط إنساني، يتخذ أوضاعاً تواصلية متعددة، ووسائل متنوعة، ويهدف إلى إقناع شخص، أو مستمع أو جمهور ما، بتبني موقف ما، أو مشاركة في رأي ما" (Breton, Janvie 1998, p. 33).

ويفرق ديكرو (ducrot) بين معنيين للفظ الحجاج، المعنى العادي والمعنى الفني الاصطلاحي؛ فالنوع الأول هو طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجحاً فعّالاً، وهذا معيار تحقق سمة الحجاجية، غير أنه غير كافٍ؛ إذ يجب ألا تهمل طبيعة السامع، ومدى القدرة على استخدام التقنيات الحجاجية في الإقناع، في حين يدل المعنى الثاني على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان، وتكمن الخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية في كونها متدرجة وقابلة للقياس (الحباشة ص.، 2008، صفحة 21).

وليس بخفي على أحد، أنّ أهل الاختصاص قد أعطوا للخطاب الحجاجي بعداً تداولياً متميّزاً، لتصبح الغاية منه؛ جعل العقول تدعن لما يُطرح، وتقوية درجة الإذعان لدى السامعين بشكل يجعلهم مهتئين للقيام بذلك العمل المطلوب في اللحظة المناسبة (صمود، 1998م، صفحة 352)، بيد أنّ الأمر يصبح أكثر وضوحاً عندما يكون السؤال الطروح هو:

ما هي وجوه التمايز والتداخل والتشابه بين الحجاج ومفردات أسرته المفهومية؟

2- الحجاج ومقارباته الدلالية: من المصطلحات المقاربية دلاليًا للفظ الحجاج؛ البرهنة (Démonstration) أو الاستدلال المنطقي، فكلاهما يحمل مفهوماً يختلف عن الآخر، فلفظة الحجاج لا تعني البرهنة على صدق قضية أو إثبات شيء ما، أو إظهار الطابع الصحيح لاستدلال ما من وجهة نظر منطقية (العزاوي أ.، 2006م، صفحة 15)، وعليه فالخطاب الطبيعي ليس بالضرورة خطاباً برهانياً، فهو لا يقدم براهين أو أدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي (O, 1980, pp. 10-11)، في حين يدل الاستدلال أو ما يصطلح عليه بـ (Raisonnement)، أنّ هناك الحجّة التي "تعتبر شيئاً مختلفاً تماماً عن الاستدلال أو البرهان" (الغامدي، 1432هـ- 2011م، صفحة 13)، فضلاً عن الإقناع والجدل والسّجال.

3- خصائصه:

يتميّز الحجاج بعدّة خصائص، من ضمنها:

- الحجاج ظاهرة اجتماعية: فهو يضمّ عدّة أشخاص منتجين له أولاً ومتقبلين له ثانياً.
- الحجاج وجود فكري فعلي: يتجه نحو الممارسة الآلية وتتحكم فيه معطيات المجابهة والمدافعة قدر الإمكان؛ لأنّه عملية تسعى إلى خلق التأثير في الآخرين.
- الحجاج فعل عقلي: لأنّه يتضمن التبرير والتعليل، كما يستخدم البرهنة لصالح الفكرة التي يدافع عنها بطريقة لا تنمّ عن قوّة أو إكراه.

- الحجاج نشاط لساني: لا يتمّ إلاّ باللغة وداخلها سواء اعتبرت اللغة وسيلة أو هدفاً، وسواء كانت لغة ثابتة (جملاً ونصوصاً) أو متغيّرة أقوال وتعايير (أزاييط، 2008م، الصفحات 79-80).

يترتب على السالف ذكره، أنّ الحجاج ذو طابع اجتماعي يتمّ بالطابع التأثيري، تتنازعه الأفعال العقلية واللسانية، وتسود فيه الحركية والنشاط ذهنيّاً وبيولوجيّاً، فهو بحق يؤسس مجالاً تداولياً.

4- أنواعه:

يمكن حصر الخطاب الحجاجي في ثلاثة أنواع هي: الحجاج البلاغي، الحجاج المنطقي، والحجاج التداولي، وتختلف هذه الخطابات باختلاف أصولها وامتداداتها المعرفية والمنهجية، لكن ذلك لا يمنع من تداخلها:

أ- **الحجاج البلاغي:** تعدّ البلاغة آلية من آليات الحجاج، وذلك لاعتمادها الاستمالة والتأثير عن طريق الحجاج بالصورة البيانية والأساليب الجمالية؛ أي إقناع المتلقي عن طريق إشباع فكره ومشاعره معاً حتى يتقبل القضية أو الفعل موضوع الخطاب، ويتميز الحجاج عند بيرلمان (Perleman) بخمسة ملامح رئيسية، هي:

- 1- أن يتوجه إلى مستمع.
- 2- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.
- 3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- 4- لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- 5- ليست نتائجه ملزمة (الأمين، 2000، الصفحات 60-61)، وبالتالي فالحجاج عبارة عن تصوّر معيّن لقراءة الواقع اعتماداً على بعض المعطيات الخاصة بكلّ من المحاجج والمقام الذي يتولد فيه هذا الخطاب، وهذه الخصائص والصّور البلاغية المحورية التي تبنّاها الخطاب الحجاجي ولا سيما الأدبي منه، لأنها تنشط الخطاب بهدف تحقيق وظيفة إقناعية.
- ب- **الحجاج المنطقي:** ويكون له بُعداً جوهرياً في الفلسفة، وهو آلية وإجرائية من إجرائياتها، وتقاس صلاحية الحجاج الفلسفي بمعايير خارجية، منها: القوة والضعف، الكفاءة وعدمها، النجاح أو الفشل في الإقناع، وغايته: التأثير والتقبّل.
- ج- **الحجاج التداولي:** ويبعث لفظ التداولية على استحضار "نظرية أفعال الكلام" كون الأفعال الكلامية غرضاً رئيساً للتداولية (صحراوي، 2005، الصفحات 40-41)، ورصدها بتنوّعها وعلى اختلاف الأبعاد التداولية المتعدّدة المستويات التي يتيح تحقيقها إمكانية معرفة توجّه الخطاب الحجاجي التّداولي، والإجابة عن الإشكاليات الجوهرية والأسئلة المهمّة التي تحيط بعملية التّخاطب (الشفي أو الكتاني). كما تعدّ الحوارية من أهم مستويات تجلّي البعد التداولي للخطاب الحجاجي، وهي العلاقة التّخاطبية بين المُخاطب والمُخاطَب، والتي تتغيّر وتتنوّع فيها الأداءات في ظاهرتي:
- **التشخيص:** ويتجسد في خاصيّة تلفظية تميّز بحدّة العلاقة الخطابية مع الشريك.

- **المقام:** هو مفهوم تجريدي يدل على الموقف التواصلي، وتلتقي فيه جميع العناصر الحجاجيّة من قدرات برهانية، وحقائق فعلية، وقرائن بلاغية، والمقام شرط تداولي بلاغي؛ لأنّه يُعنى بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال والموقف الخاص به، وهذا ما يذهب إليه الجاحظ حينما يقول: "مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (جويدي، 2003م، صفحة 56)

، فالأمر يتعلق أساساً بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر، وهذا انطلاقاً من الوظيفة الأولى للغة، وهي التواصل وكشف الكامن في الصدور.

5- علاقة البلاغة بالحجاج:

لقد استطاع البلاغيون إدراك الفاعلية اللغوية والنفسية بين البلاغة ومباحثها والحجاج وآلياته المتصلة بالسلوك الإنساني، فأسايب الحجاج في البلاغة العربية تتجلى من خلال المذهب الكلامي الذي "يعدّ الباب الذي ختم به ابن المعتزّ (ت 296هـ) أبواب البديع الخمسة التي خصّها بهذا الاسم، قال: "وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي، وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً" (المعتزّ، 1990، صفحة 147). لقد اعترف ابن المعتزّ بأنّه أخذ هذا المصطلح عن الجاحظ (ت 255هـ)، ولكنّه لم يحدده، والظاهر أنّه يريد به استخدام أساليب الفلاسفة والمتكلمين في الجدل والاحتجاج.

6- الأساليب البلاغية والروابط اللغوية في الحجاج:

يراد بها جملة من الأدوات اللغوية التي ويستغلها الباحث ليربط بين مفاصل الكلام، ويصل بين أجزائه فتتأسس عندها العلاقة الحجاجية المقصودة التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية، كروابط الوصل وروابط الفصل، إنّ وأنّ، اللام الجارة، كي، لكنّ، المفعول لأجله، والمشتقات... الخ (الدريدي، 1428هـ- 2008م، صفحة 318). ومعنى الرابط لا يكتمل إلّا مع اسم أو فعل يصحبه، ثمّ إنّ معرفة هذا المعنى تمكن المتكلّم من اختيار ما يناسبه في الخطاب.

وهنا لابدّ من التمييز بين الروابط النحوية، والروابط الحجاجية، وقد عمل الأستاذ أحمد صافي المستغامي على توظيف مؤشرات وروابط لغوية ساعدت على تنظيم العلاقات بين الحجج والنتائج عن طريق التركيب الذي استعمله في ربط أجزاء خطابه "في رحاب شنقيط" عبر روابط نحوية، وأخرى حجاجية نحو: (بل، لكن، حتّى الناصبة، والجارة والعاطفة، إنّما...)، والمفعول لأجله... الخ. والربط بين قولين فأكثر، ضمن هدف إقناعي واحد، ولكلّ رابطة سمة حجاجية تداولية يمكن ضبطها أثناء الاستعمال (الشهري، 2004، صفحة 508). وهذا ما سنميط اللثام عنه في هذه المقتطفات المختارة من خطاب الأستاذ صافي المستغامي.

7- أدوات الخطاب الحجاجي في "في رحاب شنقيط":

إنّ "العامل الحجاجي هو صرفة تحوّل الاحتمالات الحجاجية للمضمون المطبقة عليه، وتمدّد العبارات المتغيرة بإمكانية استعمالها لغايات حجاجية، حيث تتقيّد الجملة بعده ويتمّ الإسناد فيها

لبعض الأساليب البلاغية كالحصر، والتأكيد، والاستثناء، والنفي والشرط وغيرها" (محمد، 1426هـ- 2005م، صفحة 112) .

ولقد اجتهد الأستاذ صافي المستغاني في إقناع القارئ ليشركه وجهة نظره، فعرف كيف يستنجد بالأحاسيس والعقول، ليدحض المناقضين له في الوقت نفسه، وليظهر نواقصهم في الحجج أو ليبين ضعفها من خلال اعتماده معجماً لغوياً خاصاً به ينم عن غزارة الرصيد اللفظي وتنوعه، ورحابة المعجم المفرداتي وسشاعته؛ فهذا اللغوي الجزائري البارح حفظه الله تعالى، يجعل هدفه الأساس الإقناع والإمتاع معاً، وهذا معروف في جلّ خطابه الإعلامية التلفزيونية الشهيرة الرائعة؛ باستعمال الصيغ المألوفة في الخطاب الحجاجي من أدوات اتساق نصية، وروابط حجاجية متينة على غرار الطباق والسجع والصور البلاغية الجميلة، ناهيك عن براعته في استنطاق النصوص الحافلة ألفاظها بالمتلازمات أو المصاحبات اللغوية ضمن حقول دلالية منوعة التي سنأتي على ذكرها تباعاً في ثنايا المقال.

يخيّل للقارئ منذ الوهلة الأولى أنّ صاحب هذا المقال البليغ والخطاب اللغوي الرصين هو شخصية اللغوي الألمعي الأصمعي وهو يجوب القبائل العربية الفصيحة والمنازل العربية العريقة ليغرف من بحورها الزاخرة، وينهل عذب ألفاظها، ويغرف جميل معناها؛ فقد عبّر الأستاذ صافي عن حبّه للغة العربية وأهلها بشكل مستفيض يدعو للارتقاء بالأمة العربية، كيف لا ونحن نراه يتأنق في أسلوبه فصاحة وبياناً، ومن ذلك صوره البليغة الممثلة في: الاستعارات "وأقول في نهاية هذه الأسطر حول بني شنقيط الذين أذاقوني مودّتهم"، "وأن نروي غليلهم بأنساقها التعبيرية الجميلة"، "هنيئاً لكم هذه اللغة السليمة الفصيحة التي تتفياؤن ظلالها، وتتنسّمون عبيرها وأريجها" (المستغاني، 2019).

كما دبّج مقاله بمجموعة ثرية من الكنايات والتشبيهات المليحة: "فلا خشية على أبنائكم من عواصف التّغريب، ولا من أعاصير الإيديولوجيات"، "جسرٌ لفهم الوحي السماوي"، "تجدّرت معها دوحَةُ الإسلام وطالت فروعها"، "تعمل على تفتيق أكمّام الإبداع في نفوس أبناء المجتمع" (المستغاني، 2019) .

ناهيك عن توظيف المحسنات البديعية الرنانة مثل: السجع في قوله: "إلى أن يَمّت نحو شنقيط رَحلي، وأنختُ بها عنسي، فإذا بي أمام ثلاثة من الكرام تسري العربية في دماهم، وتجري في عروقهم..."; والطباق في قوله: "وظلّ هذا الفهمُ يصحبني في حليّ وتَرحالي، في شبابي وكهولتي، الربح والخسران" (المستغاني، 2019) .

إنّ الصور البلاغية والألوان البديعية الموظّفة في النصّ - وغيرها كثير- تعدّ بمثابة كفايات حجاجية زادته تأثيراً وإقناعاً، وهذا ما منح الخطاب فاعلية وقوّة، الأمر الذي جعل النص أكثر قبولاً وإقناعاً للمتلقّي، فتمكن أن يغيّر من قناعاته ويبيّن مصدر قوة أقواله وآرائه، فالنصّ "حوار مع المتلقّي، حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسّس النصّ ومتلقّيه وتبقى الخاصية التحوارية هامة وأساسية في تأكيد حجاجية النصّ" (العزاوي ب.، 2010، صفحة 35).

وكثيراً ما نجد روابط وصل أخرى (أن وإنّ) مهمّتها التأكيد والتحقيق، فهي في رأي النحاة والبلاغيين "تؤكد ما بعدها وتحقّقه" (المخزومي، 1406هـ-1987م، صفحة 317)، ومن ذلك إن وأنّ مثل قول الأستاذ: "تعلّمت أنّ اللغة تُكتَب وتُنطق"، وقوله لا أكون مبالغاً إذا قلت: إنّ بني شنقيط لا يتكلّمون اللغة، بل يتنفّسونها. أسلفت أنّ المحافظة على اللغة العربيّة تقتضي رؤية واضحة لدى كل الأسر والمدارس وأبناء المجتمع وساسته وقادته، وإنّ العربيّة في دياركم بخير، وإنّ بشائر النّجاح والتألّق تتغشّاكم وتحفّ بكم؛ لأنّ العربيّة وعاء القرآن" (المستغاني، 2019) ، ودلالة لكن حين قال: "صحيح أنّي كنت على علم بهذا قبل سفري إلى بلاد شنقيط المباركة، ولكنّ الذي راعني وراقني، وشدّني وأسرنني وهزّني أنّي التقيت، على هامش لقاء علميّ تدريبيّ يندرج في إعداد المحرّرين المعجميّين المشاركين في مشروع المعجم التاريخي للغة العربيّة، قلت: الذي شدّني أنّ عددا كبيرا من الذين حضروا ذلك اللقاء، إن لم أقل كلّهم، كانوا شعراء فصحاء، يرتجلون الشعر بداهة. تجوّد قرائهم بالأشعار الجميلة الأخاذة السّاحرة في الدّقائيق واللّحظات" (المستغاني، 2019)، وفي قوله أيضاً: "لقد تعلّمت من هذه الرّحلة العلميّة دروساً وعبراً، ولكنّ الدرس الكبير الذي حفّرت في ذاكرتي، وتشربته مُخيّلي، وتجذّرت آثاره في بؤرة تفكيري هو أنّ الحفاظ على اللغة يحتاج إلى جهد ورؤية وقناعة وبيئة" (المستغاني، 2019)، وهذا التوجه نحو النتيجة المضادة بعد (لكن)؛ جعل الحجّة أقوى قياساً لما قبلها، ولا شك في أن (النفي والاستفهام) في قوله: "كيف يستقيم لسان الابن، وأبوه وأمّه يخاطبانه بالعاميّة البعيدة عن كل فصيح؟ أم كيف يُفصّح لسان النّاشئ فينا وأبواه يخاطبانه بلغة أجنبيّة لا علاقة لها بدينه وقومه ووطنه؟ أم كيف تستقيم ألسنة أبناء الجيل، وكلّ ما في المجتمع يدعو إلى التّغريب والعيش في فلك الممنوعات؟"، تُرى ما السبيل إلى تعلّمها بله حفظها وإجادة التعبير بها؟ ومتى يتعلّمها أبناء مدارسنا؟" (المستغاني، 2019) .

إنّ ما طرحه المستغاني من إشكالات كان له الدور الكبير في إقناع الآخر، إنّه بصدق يؤدي وظيفة نفسية تثير جموع الأحاسيس والعواطف تجاه حبّنا للغتنا العربيّة الجميلة. وهو الحائر المتسائل المصحّح بالقول: "وهل يستطيع أحد أن يُسكت لسان الشعر إذا غنى، وهل بمُكنة أحد أن يمنع العواطف المتأثّرة والمُشاعر المتأجّجة أن تسيل على ألسنة أصحابها؟"

إنّ براعة الأستاذ أحمد صافي المستغامي اللغوية وحسه البلاغي جعلاه يقنع المتلقي بصورة خيالة رسمت في لوح باله صورة راسخة الأركان، واضحة المعالم عن عربي المستقبل الذي يتمثله الأستاذ في ذهنه، ويستشرف به آفاق المستقبل المشرق، كما تضفي على حجته جمالا وبلاغة في الوصف تقنع المستمع/ المتلقي العربي، وتجعله على بينة من أمره، كيف لا وهو الذي وصف بلاغة العربي القحّ، وقارن بينها في صور بيانية كان لها سحرها الأدبي وأثرها الإقناعي في المشككين والمترددin، ولها أيضا بعدها والحضاري لدى الإنسانية جمعاء؛ من خلال الامتثال لمشروع إعداد المعجم التاريخي للغة العربية، والإقدام على دراسته ووضعها بشقّي الطرق العلمية الدقيقة، والمناهج الدقيقة، والوسائل الناجعة، باستخدام أبلغ الأدوات الإجرائية وأقواها في صناعة المعجم الحلم وتأليفه، والذي بدأ يتحقق رويدا رويدا، وسيتشرب مداخلة بما تتضمنه من معان ومفاهيم أبناء العروبة من المحيط إلى الخليج، بل وسيمتد صداه إلى الأعاجم في شتى أقطار العالم الذي أعجبوا بهذه اللغة العريقة.

ولأسلوب النفي مع الأستاذ حكاية إن لم نقل معزى ودراية بخُلُقٍ حميد يتمتّع به الإنسان الراقى، إنّه التواضع العلمي الذي يفرض احترام الآخرين لهذه القامة العلمية الجزائرية، وقد نجح الأستاذ نجاحا باهرا في كسب قلوبهم، وفي هذا النفي حكمة لا يفهمها إلا من يقرأ بين السطور؛ ولنتأمل قوله: "وما أنا بالذي يسوق اللغة إلى أصحابها، وإذا كان التاجر الماهر الحاذق الخريّت العارف بمسالك التجارة والريح والخسران لا يستطيع أن يبيع التمر في بلاد العراق التي تفيض مناكها وواحاتها بكل أنواعه؛ فكذلك المتكلم الفصيح مهما كان حاذقا بلسان العرب، مُتقنا لمعارفه اللغوية والأدبية فإنه لا يستطيع، وما هو بقادر، أن يُرَوِّج لبضاعته اللغوية المزجاة أمام أهل شنقيط الفصحاء وأبنائها الشعراء الأبناء" (المستغامي، 2019).

وإذا رمنا الحديث عن المعجم اللغوي للأستاذ فإنّ هذا الخطاب— رغم قصره— يزخر بجملته من الحقول الدلالية المتنوعة، الدينية واللسانية والطبيعية، ويمكن توضيح ذلك في هذه الخطاطة:

الحقل الدلالي	المفردات والتراكيب
الدين الإسلامي	العقيدة، العربية، التربية، التعليم، الله تعالى، القرآن الكريم، الوحي السماوي، جذور الإسلام، الدين القويم، اليمن، الفلاح.
اللسانيات	اللغة، علوم العربية، المعارف اللغوية، اللغة السليمة، تعليم اللغة، نحوها، صرفها، الأنساق التعبيرية، مترادفات، أضداد.
صناعة المعاجم	المعجم التاريخي، التحرير المعجمي، الجذر، المشتقات، المصادر، الدلالات، الحروف، النطق، أبنية العربية.

موريطانيا	شنقيط، حب العربية، الشعر، الشعراء، يرتجلون، البداوة، سلامة فطرة، صفاء قريحة، ونبل شيم، محافظون، التقاليد الأصيلة، الثوب التقليدي، عذب، شجي، لسان الشعر.
الصحراء	حلي، ترحالي، دماثة خلق، حب العربية، الجران، الهادئة.

ولعل توظيف صافي المستغامي لهذه المجالات المتواشجة الروابط، الوثيقة الصلة كقيلة بضمنان استمرار العربية وازدهارها في كنف الدين الإسلامي، فهو بمثابة الحصن الحصين والدرع المتين الذي يحميها من شتى الأخطار المحدقة بها، وفي الوقت نفسه تطوير بجناحي كشوفات اللسانيات الحديثة من جهة، وفتوحات التكنولوجيا الحديثة من جهة أخرى، لتُرضع أبناء هذه الأمة، وغيرهم من الراغبين في تعلمها وتعليمها لشتى الأغراض والمنافع، لغة عذبة صافية، ويدعم ذلك كله الانغماس اللغوي، كما عايشه الأستاذ في بلاد شنقيط، حينما شاهد بأعينه ارتجال اللغة ممارسة وأداءً، شعراً ونثراً من أبناء هذه الرقعة العربية الغالية.

كما نلاحظ أنّ الأستاذ صافي المستغامي ينهل من مشكاة القرآن الكريم، ويستنير بمصباح الحديث النبوي الشريف، ويقتفي منظوم كلام العرب ومنثورهم، وخير دليل اقتباساته من النصوص القرآنية: كما في قوله (تغشاكم، وتحفّ) الذي نجده مستوحى من قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَيِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (سورة الأنفال، الآية 11)، ويحتذي فيه أيضاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» (مسلم، 1334هـ).

ونظيره كلمة (نافلة) التي اقتبست من قوله الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَحَ جَدِّ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 79)، وفي قوله (يروّج لبضاعته اللغوية المزجاة) مستلهمة من الآية الكريمة: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية 62).

كما تقاطعت أفكار الأستاذ المستغامي مع كلام العرب، منثوره ومنظومه في كثير من فقرات المقالة؛ ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: عبارتي: "كيف يستقيم لسان الابن، وأبوه وأمه يخاطبانه بالعاميّة البعيدة عن كل فصيح؟"، ونظيرتها "ولا يستوي على سوقه إذا كان القائمون على المجتمع وحرّاس التربية فيه، والآباء والأمّهات خلوا من الرؤية الواضحة" (المستغامي، 2019) المستلهمتين من قول الغزالي: "فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج" (الغزالي)، وتناص أيضاً في معانيها ودلالاتها مع بيت ابن خفاجة الأندلسي حين يقول: فَمَا يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ وَالْمُلْكُ جَائِزٌ *** وَهَلْ يَسْتَقِيمُ الظِّلُّ وَالْعُودُ مَعُوجُ (الأصهباني، 1971م،

وفي ذلك إشارة واضحة من الأستاذ المستغاني إلى وجوب تحلي ولادة أمورنا -مغربا ومشرقاً- بالحزم والعزم في سياستهم اللغوية للنهوض باللغة العتيدة، وترفية استعمالها، وضمان تدوالها وانتشارها في شتى المجالات، ومن ثم يتحقق الإبداع والابتكار بها، كما برع في ذلك أسلافنا في العصور الزاهية للحضارة العربية.

ووظف الأستاذ في مقاله معجماً لغوياً ثرياً، زواج فيه بين اللغة التراثية الرصينة الدسمة، والأسلوب الحدائي المتناغم مع روح العصر ومتطلباته الحضارية والتقنية؛ ومن جملة الألفاظ العربية التراثية التي لها معنى معجمي عريق، وشحنة دلالية عجيبة، نذكر: (المهيع)، (الخريت)، (خلوا)، (الأبناء)، (استفزعوا)، (نحية)، (عنسي)، (الموشى)، وغيرها كثير في المقالة.

كما لجأ إلى استعمال مفردات معاصرة تواكب زماننا، وتتماشى مع المفاهيم المعاصرة وما صاحبها من غزو فكري وثقافي، وسيل تكنولوجيا متدفق، ولنلمس ذلك في هذه المفردات والتراكيب: التغريب، التمييع، القراءة، المطالعة، الإيديولوجيات، الجامع، التحرير المعجمي، المعجم التاريخي، وغيرها.

بالإضافة إلى استغلال الترادف اللفظي في تدبيج مقالته، إذ يشكل الترادف والتتابع والتوارد العلامة المميزة في أسلوب صافي المستغاني، وما أكثر نماذجه في النص! وما أبلغ صورته! ولقد ساقه العلامة لتوكيد المعنى وتثبيتته، وتقريب الدلالة وترسيخها؛ ومن ذلك حديثه عن خصال الإخوان في موريطانيا الشقيقة: "فيهم دماثة خُلُق، وطيبُ نَحِيْزة، وسلامةُ فطرة، وصفاءُ قريحة، ونُبْلُ شيم، وطُهرُ خصال" (المستغاني، 2019)، وكذلك وصف شعر الموريطانيين بعبارة ناقد حصيد "تجوّد قرائحهم بالأشعار الجميلة الأخاذة السّاحرة" (المستغاني، 2019)، واستطرد قائلاً: "ذات إيقاع موسيقيّ عذب شجيّ مؤثّر بليغ" (المستغاني، 2019)، ونعت الحق بسماته "الحقّ الأبلج الواضح الجليّ"، وكذلك "التّاجرُ الماهرُ الحاذقُ الخريّتُ العارفُ" (المستغاني، 2019)، وينعت ولع أهل شنقيط بالشعر بتسابقهم في الإنشاد والارتجال بقوله: "وإذا بالحناجر تعلو، وإذا بالأصابع ترتفع" (المستغاني، 2019).

يضاف إلى التناص الموجود من خلال بعض المسكوكات والتعابير الاصطلاحية التي وردت في شكل المصاحبات اللغوية، والأمثال العربية التي تداخلت في نسيج النص، وزخرفت ألفاظه، وأثرت معانيه، وشحنت دلالاته ومنها: عبارة "لكنه ينفخ في الرماد"، وجملة "تحصيل حاصل، و"ضربة لازب" ويستحضر الأستاذ في خطابه قول مالك بن نبي عندما يرى أننا: "عندما نقوم بتحليل نشاط الأفراد وأذواقهم في بيئة معينة، نجد عوائد سائدة، تنتقل بينهم كابراً عن كابر" (مالك، 2002).

وهناك أيضا مجموعة من التعابير الاصطلاحية المتداولة المشهورة؛ كقوله: "لا يستوي الفرع....، ولا يستوي على سوقه" ..يدلي بدلوه" ، فهي بحق عبارات رنانة ذات معان دقيقة، وشحنات دلالية مكثفة تغني عن عدة جمل، كما أنها تجمع بين التراث والحداثة.

خاتمة:

من الواضح أنّ هذه النماذج المقتطفة من خطاب الإقناع والإمتاع لمحمد صافي المستغاني ما هي إلا محاولة بسيطة، نكشّف من خلالها عن براعته العلمية، وامتلاكه ناصية اللغة، وإتقانه لآليات الحجاج وإقناع الآخر، من خلال توظيفه للروابط الحجاجية والأساليب البلاغية المختلفة، وفي الآن ذاته تتجلى القيمة الأخلاقية العظيمة في أبعادها الإنسانية والاجتماعية، وكأنّه بخطابه هذا يعقد صلة وتقاربا بين البلاغة القديمة، والحجاج واللسانيات النفسية والاجتماعية، من خلال نظرتة العبقريّة في الدفاع عن مستقبل أبناء اللغة العربيّة الفصيحة، تلك هي المهمة التي قيض الله تعالى لها هذه الشخصية الفذة، لتعبّد الطريق لكوكبة من اللغويين العرب لإنجاز مشروعهم الحضاري، ولا غرو في أنّ العلامة أمحمد صافي المستغاني أستاذ الأساتذة، ومن الأنسب أن يقال إنّه أستاذ جيل كامل في مجتمع يغفل الكثير فيه عن الإشادة بصنيعه، بل ويجهلون طاقات وطننا الحبيب، وهذه الورقات جاءت شهادة واعترافا بجهود وإسهامات هذه الشخصية الوطنية في سبيل ترقية لغة القرآن الكريم، وحفظ معجمها اللغوي بما يواكب عصرنا، فله منا عظيم التقدير والعرفان بجهوده الذائعة الصيت.

المراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- 1- ابن المعتز. (1990). كتاب البديع ، ط:1. دار الجيل.
- 2- أبو بكر العزاوي. (2006م). اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط:1. الدار البيضاء.
- 3- أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
- 4- بكر العزاوي. (2010). الحجاج والخطاب، ط:1. لبنان: مؤسسة الرحاب الحديثة.
- 5- بنعيسى أزيبيط. (2008م). مداخلات لسانية: مناهج ونماذج. مكناس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، سلسلة دراسات وأبحاث رقم: 28.
- 6- الجاحظ تح: درويش جويدي. (2003م). البيان والتبيين د ط ، ج:1. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية، صيدا.
- 7- سامية الدريدي. (1428هـ-2008م). الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط:1. إربد، عمان الأردن: عالم الكتاب الحديث.
- 8- صابر الحباشة. (2008). التداولية والحجاج: مداخل ونصوص ، ط:1. دار صفحات للدراسات والنشر.



- 9- عبد الهادي بن ظافر الشهري. (2004). استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية.. لبنان: دار الكتاب الجديد.
- 10- عماد الدين الأصهباني. (1971م). خريدة القصر وجريدة العصر- قسم شعراء المغرب والأندلس. الدار التونسية للنشر.
- 11- فيليب بروتون وجيل جوتييه، ترجمة: محمد صالح ناهي الغامدي. (1432هـ-2011م). تاريخ نظريات الحجاج، ط:1. جدّة: مركز النشر الجامعي، جامعة الملك عبد العزيز.
- 12- فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة. (2007). التداولية من أوستين إلى غوفمان، ط:1. اللاذقية، سورية: دار الحوار.
- 13- محمد سالم ولد محمد الأمين. (2000). مفهوم الحجاج وتطوره في البلاغة المعاصرة ، العدد 2، يناير- مارس. مجلة عالم الفكر.
- 14- محمد صافي المستغاني. (7 مايو، 2019). في رحاب شنقيط. تم الاسترداد من صحيفة الصدى، موريطانيا: <https://www.essada.info>
- 15- محمد طوس. (1426هـ-2005م). النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط:1. الدار البيضاء: دار الثقافة.
- 16- مسعود صحراوي. (2005). ينظر: التداولية عند العلماء العرب ط:1. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- 17- مسلم. (1334هـ). صحيح الإمام مسلم (الإصدار 1، المجلد 8). تركيا: دار الطباعة العامة.
- 18- مهدي المخزومي. (1406هـ-1987م). في النحو العربي نقد وتوجيه ، ط:2. بيروت: دار الرائد العربي.
- 19- ينظر: شكري المبخوت، إشراف: حمادي صمود. (1998م). ينظر: يرنظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم فريق بحث البلاغة والحجاج. تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.
- 20- Breton, P. (Janvie 1998). L'argumentation dans la communication. Alger: Edition du CASBAH.
- 21- O, D. (1980). Les échèles argumentatives. Paris: Minuit.